

النزعة التاريخية في كتابات الأمير عبد القادر

أ. بلعربي محمد

جامعة تلمسان

قد يكون من المبالغة بما كان أن نعد الأمير عبد القادر مؤرخا ولكن كتبه تشهد على حضور نزعة التأريخ عنده. ولعل كتابيه " ذكرى العاقل وتنبية الغافل " و " المذكرات " دليل على ما نريد إثباته في هذا المقال.

يمثل الأمير نموذج المثقف الجزائري في القرن التاسع عشر، ذلك المثقف الذي استوعب ثقافته التراثية ، وتمثلها أحسن التمثيل . " فهو مثال واضح لمثقف التراث الخالص " (1) ولقد طغى على ثقافته جانب الدين طغيانا كبيرا ، وفسر ذلك بعمق إيمانه ، وكبير تعقله بالسلف الصالح . والحديث عن الدين والنبوة عند الأمير لا بد أن يفتن بتاريخيهما . فتاريخ الدين هو تاريخ الخلق، وتاريخ النبوة هو تاريخ جميع الأنبياء . من آدم إلى محمد . والحديث عن العرب هو تاريخ العرب ، والحديث عن الخط العربي هو تاريخ الخط العربي . ومن ثم تبدو النزعة التاريخية واضحة في كتابات الأمير رغم أن الغاية منها لم تكن هي كتابة التاريخ والواقع أن " التاريخ " للظواهر قبل وصفها هو منهج علمي أصيل شريطة أن يتقيد من يؤرخ بمنهج يقيه عاقبة الزلل، ويصونه من الوقوع في الأحكام المسبقة ، وذلك بعرض المادة المؤرخ لها على محك العقل ليستخلص منها ما يجوز مما لا يجوز ، ما يعقل مما لا يعقل.

لم يكن الأمير مؤرخا ، كما ذكرنا ، في البداية ، ومن ثم لا يصبح التأريخ عنده إلا نوعا من عرض ثقافة تاريخية حصلها من كثرة مطالعته ، ومن الكتب التي قرأها قبل جهاده وفي سجنه بمدينة " أمبواز " . فقد كان كتاب " مذكرات الأمير " (2) جوابا على سؤال وجه إليه في السجن . فقد طلب منه أحد المسؤولين الفرنسيين (3) أن يذكر له تاريخ حربه مع فرنسا . ولسنا ندري أكان الأمير قد سجل تاريخ معاركه قبل مجيئه إلى فرنسا أم أنه كتب تاريخه من وحي الذاكرة ليس إلا. والظاهر أن

كثيرا من أسماء الوقائع والمعارك ، مذكور في الكتاب ، بمكانه وزمانه ، بدقة وأمانة . حتى ليخيل لقارئ هذا الكتاب أنه إزاء سيرة ذاتية ، وكأنه يقرأ رواية واقعية طويلة .

يقول الأمير في مقدمة مذكراته :

" وبعد فإن بعض أساقفة النصارى طلب كتابا مضمناه تاريخ ما جرى بيننا وبينهم من مصالحة ومكافحة ... ونزيده مع ذلك التعريف بالجاهد الإمام الأعظم الأعدل الأكرم " (4)

يقسم الأمير كتابه إلى سبعة فصول هي :

- 1- نسب الأمير .
- 2- نسب الرسول ، وتاريخ القبائل العربية.
- 3- النبوة ودلائلها .
- 4- جهاد الأمير ، ومعاركه.
- 5- أخلاق العرب.
- 6- نسب الروم وخصالهم وتاريخ أوائلهم .
- 7- اختلاط الأمم .

ويبرر الأمير تقسيمه للكتاب إلى سبعة فصول تبريرا دينيا أسطوريا . ذلك أن العدد سبعة مذكورة في الحديث النبوي غير مرة . كما ذكر القرآن في غير ما آية وعبر به دون غيره من الأعداد عن مقاصد شتى (5) فأصحاب الكهف سبعة ، والأقاليم سبعة ، والدراري سبعة والأرضون سبعة... والبحار سبعة... (6) . ويبدو تقديس الأمير لهذا العدد واضحا فقد كان ذلك من معتقداته التي يؤمن بها ، وظهر أثرها على كتابه.

وقبل أن يذكر الأمير تاريخ معاركه ، يتحدث عن نفسه وعن نسبه الشريف، وعن القبائل العربية وأصولها . ثم يعود من الماضي إلى حاضره مع فرنسا . ويستشهد في كثير من المواقف بالشعر

العربي وبتاريخ الصحابة والحلفاء . وينتقل من الحاضر إلى الماضي ومن الماضي إلى الحاضر عارضا معارفه التاريخية المشوبة بالأساطير عن الأمم الماضية وأديانها . تبدو النزعة الأسطورية في كتابات الأمير واضحة ، فهو في " المذكرات " وفي " ذكرى العاقل " يورد كثيرا من أخبار التاريخ دون نقد أو تمحيص ، أو عرضها على محك العقل ليعرف ما هو معقول منها وما هو غير معقول . وفي نقله لأخبار الأمم البائدة يمزج الأساطير بالتاريخ ... ويصدر أحكاما على خصائص الشعوب القديمة تبدو غريبة لقارئ هذا العصر .

عندما يتحدث في " ذكرى العاقل " عن العرب وكثرة تصنيفهم للكتب يقول :

" وتيسر لهم من التصنيف ، في أنواع العلوم ، ما لم يتيسر لأحد قبلهم حتى أن منهم من بلغت تصانيفه .. ثلاثة آلاف مصنف وزيادة " (7) فلو استطاع إنسان أن يؤلف كتابا واحدا كل شهر في ثمانين عاما فإنه لن يتجاوز ألف كتاب. ويبدو ذلك مستحيلا في نظر العاقل فكيف بالعدد الذي ذكره الأمير . ويبدو أنه قرأ كتب المؤرخين القدماء ونقل أخبارهم وما ورد فيها من أساطير . ومن أحكامه العامة وهو يتحدث عن الأمم القديمة وصفه الفرس بأنهم أعدل الأمم وأوسطهم دارا بالنسبة لهذه المعمورة (8). ويروي الأمير قصة بناء البيت الحرام بهذه الطريقة :

" قال الله تعالى لآدم ابن لي حرما مقابل عرشي ، فقال آدم ، أتى ، ربي ، وكيف لي بذلك ؟ فقيض له الله ملكا ، فهداه إلى مكة... فقال له ههنا فبناه من خمسة أجبل : طور سيناء وطور زيناء ولبنان والجودي ، وحرء وخرج به الملك إلى عرفات ، ورجع إلى البيت فطاف به أسبوعا وحبب إليه من الهند أربعين حجة على رجله . ثم توفي عليه الصلاة والسلام بالهند بعدما رجع من الحج " (9) ويبدو الأمير متأثرا بأصحاب سير التاريخ الإسلامي كابن هشام والطبري ومن إليهما . وفي هذه الكتب خلط بين التاريخ والأساطير ، فهي تروي قصة الخلق وقصص الأنبياء ، وأسماء الأماكن المقدسة في الأرض وفي السماء مما يصعب التحقق منه ، والاطمئنان إلى حقيقته . وعلى الرغم من تأثره الواضح بآراء خلدون في نظرية الطبيعة وأثرها على البشر ، فإن الأمير لم يتقيد بمنهجه في دقة الوصف ، واستبعاد الأخبار التي يستغربها العقل ، ويرفضها المنطق . فقارئ المذكرات يشعر كأنه يقرأ تاريخ العالم من وجهة نظر كتب الدين لا من وجهة نظر التاريخ

وقد وقف الدكتور ممدوح حقي محقق " ذكرى العاقل " عند هذه النزعة الغربية في فكر الأمير ، مستغربا جمعه بين العقل والسذاجة ، وبين التاريخ الحقيقي والأساطير ، يقول: " ويجعل اللغة السريانية أصلا للغة الهندية ، وأنها إنما تبذلت بعد موت إدريس ، ويفسر الأجدية تفسيراً أقل ما يقال عنه إنه تنطع وتكلف ، ويحصر كتابات الأمم في اثنتي عشر قلما ، ويحمل إدريس بناء الأهرام ... ويناقش نظرية انتقال الضوء وحساب سرعته على قاعدة المقولات العشر التي سادت الفلسفة الإسلامية أواخر عهدها ... ولعل إيمانه العميق بالله تعالى وأنه خالق كل شيء ومدبر كل شيء هو الذي وقف دونه ودون تقبل النظريات الحديثة ... مجردة من الأثر الديني فيها تجريدا تاما. (10)

وقد أشار الأستاذ عشراي إلى أثر ثقافة القرون الوسطى في فكر الأمير عندما تحدث عن

كتابه المقرض الحاد :

" تأثر الأمير واضح في هذا الكتاب بثقافة العصر العباسي وما تلاه من العصور الوسيطة . وقد أساءت تلك الثقافة التقليدية لمثل وإنسانية الأمير وورطته في الوقوع في منزلق النظرة المتعالية ... ولعل من مظاهر ذلك التأثير السلبي هذا المنحى الذي يمكن أن يقال إنه منحى أنثروبولوجي أشاعته الفلسفات القديمة، بحيث نظرت إلى الأقوام والمجموعات البشرية بمنظار عنصري غابت عنه القوانين التي تؤمن بوحدة الجنس البشري وقابليته للتطور و الرقي . " (11) ومن ثم تكون الغنوصية التأويلية والإسرائيليات المشبعة بالأساطير هي أقوى سمات ثقافة العصر الوسيط التي استقى منها الأمير معارفه. ويكون الطبري الذي يعترف في تاريخه بأنه ينقل الأخبار كما وردت إليه ، هو أكبر مصادر ثقافة الأمير التاريخية .

ومهما يكن من أمر ، فإن كتابات الأمير إن هي إلا انعكاس لثقافة عصره . لقد استطاع أن يجمع في شخص واحد شخصيات مختلفة متعددة الوجوه . فيها الأديب والمؤرخ والفيلسوف يلتقي في فكر الأمير التاريخ بالأسطورة ويتحد العلم بالدين ويصطحب العقل وعالم الغيب . شتات من النزعات استطاع الأمير أن يؤلف بينهما ويربطها بقوة ونجاح.

الهوامش

- 1- السيد محمد علي الوزير : الأمير عبد القادر الجزائري ، ثقافته وأثرها في أدبه . الجزائر . م و ك . 1986 . ص 5.
- 2 - مذكرات الأمير: سيرة ذاتية تنشر لأول مرة من مخطوط عشر عليه في باريس سنة 1967 . تحقيق : محمد الصغير بناني ، محفوظ سماتي ، محمد الصالح الجون . دار الأمة الجزائر 1998 . ط.3
- 3- مذكرات الأمير ، ص 33
- 4- المصدر نفسه ، ص 33 .
- 5- المصدر نفسه 43 .
- 6- المصدر نفسه 43 .
- 7- الأمير : ذكرى العاقل وتنبه الغافل
تحقيق ممدوح حقي ، دار البيضة العربية ، د ت ، ص 155 .
- 8- المصدر نفسه ، ص 144
- 9- المذكرات ، ص 211 .
- 10- ممدوح حقي : مقدمة ذكرى العاقل ، ص 9.10.11 .
- 11- عشراي سليمان : الأمير عبد القادر المفكر . دار الغرب 2000 ، ص 24.25.